من هنا، صارت الطائفية موضة المرحلة. فالأوليغارشية البورجوازية ـ الاقطاعية العربية ليس لديها ايديولوجية سوى الطائفية.

طبعاً، الطائفية بذاتها هي غير مقنعة وحدها. ويعرف حتى البسطاء انه لا يكفي ان يكون الحاكم «مؤمناً» كي يحق له ان يحكم، ويقوم بمختلف الارتكابات. انما هناك شبكات مصالح كومبرادورية، تليها شبكات من المنافع الصغيرة، وهي، بمجموعها، هي المقنّعة بالنشاط الطائفي، وبالولاء الطائفي، أو حتى بالولاء الطائفي ـ القبـلي، وذلك حسب المنطقة المأخوذة في الاعتبار. مثلاً، الولاء والنشاط الطائفيان قد يساعدان على تسلّم تعهدات يبلغ حجمها بالملايين، أو قد يساعدان على فتح اعتمادات مصرفية ضخمة، او قد يفيدان في ازدهار تجارة معيّنة، أو قد يُقبض ثمنها نقداً، وقد ينفعان على المستويات الأدنى في التوظيف، او التشغيل، أو التسهيل في معاملات الدولة، أو في ربح دعوى على خصم، أو في ابتسامة وتشجيع من احد الوجهاء، أو ذوي النفوذ.

هذه الطائفية المباشرة تساعد، في الوقت عينه، في خلق طائفية (أو طائفية ـ قبلية) غير مباشرة، تظهر في صيغتين: الأولى هي صيغة قبول الطائفية كأمر واقع؛ فيقول المرء لنفسه: ما دام الجميع طائفيين، فلأكن طائفياً (بمنظور الاستفادة)، أو ما دام الآخرون، في الجهة الأخرى، طائفيين، فلأعمل (أو فلأسـاعد) على التكتيل الطائفي المضاد اتقاء للأخطار المحتملة! والصيغة الثانية هي الرؤية الطائفيـة، فيفسّر المـرء، تلقـائياً، أو بشكل مقصود، هذه الظاهرة، أو تلك، من خلال الانقسامات الطائفية القائمة: كي يتمّ أمر ما، يجب اقناع الطائفة الفلانية به؛ وكي لا يحصل أمر ما، يجب ان تفعل الطائفة الفلانية كذا، أو ان تقف الطائفة الأخرى الموقف كذا، أو ان تقبل الطائفة الثالثة بكذا، الخ. أي يتحوّل التحليل الاجتماعي، أو السياسي، من تحليل علمي الى تحليل غيبي قائم على الرؤية الطائفية.

في اطار الرؤية الطائفية، يضيع الدور الكفاحي والقومي للفلسطينيين؛ الدور الذي اكتسبوه في الستينات. فهم امّا «شعب زائد»، كما قال المتوفى بشير الجميل، أو شعب مربك، أينما يكون، تكون المشكلات. وبما ان نفوذ الادارة الاميركية هو الذي يسيطر على المنطقة العربية، مباشرة ومن خلال «أصدقائها»، فان الكفاح الفلسطيني يفقد، لدى الأوساط المؤمنة بالقدر الاميركي، منظوره التفاؤلي، ويبقى منه فقط ما يتسبب به من انعكاسات على البيئة، التي يوجد فيها: حيثما يكون هذا الكفاح، يمكن ان يحدث عدوان اسرائيلي، يضرّ بالأرواح وبالممتلكات.

عدا ذلك، ما زالت الأوساط الضعيفة الوطنية منذ زمن طويل تهجو الفلسطينيين، وتطعنهم في نضـاليتهم، وفي سلوكهم، وفي تصرّفاتهم مع الآخرين. هنا، أيضاً، يُنظر الى الفلسطينيين كطائفة، وباعتبارهم ليسوا ملائكة، تؤخذ الاساءات الفردية ـ ان وجدت ـ على انها صادرة عن المجموع.

طبعاً، ليست الرؤية الطائفية تلك بمسيطرة على الرأي العام العربي، ولا يمكن ان تكون معبّرة عنه، ولكنها، مع ذلك، طافية على السطح، وتغذّى بكل ما لدى القوى غير الوطنية من رصيد.

غزو لبنان، في المنظور الطائفي، سببه وجود الفلسطينيين (وجودهم لا كفاحهم)؛ لذا يكون من «حق» اللبنـانيين ازالة «سبب» الغزو. من هنا، كان التواطؤ على ترحيل المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، وكان ضعف ردود الفعل على الغزو، وقبل الغزو، على المجازر، وكان الصمت على المجازر اللاحقة.